مقدمة الترجمة العربية

ممدوح الشيخ

مهمة صعبة هي تقديم هذا الكتاب، بسبب موضوعه ومحتواه معًا!

الكتاب يستكشف «**انهيار الحضارات القديمة، وفي هذه الدراسة الاستقصائية يختبر غاي د. ميدلتون أفكارنا بشأن الانهيار، كيف نفسره؟ وكيف بنينا خرافات مُتعلِّقة بالانهيارات من الـمُحتمَل أن تكون مُضلِّلة؟**»، وهو يُظهِر كيف ولماذا تكون ظاهرة انهيار المجتمعات أعقد بكثير مما نفهم عنها. والمؤلف غاي د. ميدلتون درس التاريخ القديم وعلم الآثار القديمة في **جامعة نيوكاسل** ونال شهادة الدكتوراه من **جامعة درام**، ودرَّس في جامعات بالمملكة المتحدة، وعاش وعمل في اليونان وكوريا، ودرَّس لسنوات في **جامعة طوكيو** باليابان. يشغل الآن منصب أستاذ زائر في كلية التاريخ والكلاسيكيات وعلم الآثار القديمة في **جامعة نيوكاسل**.

تتصدر الكتاب عبارة الفيلسوف البريطاني المرموق برتراند راسل: «**تاريخيًّا، تُعدُّ الخرافة أكثر أهمية، حتى من الحقيقة**»، أحد أهم مفاتيح فهم الكتاب. والمؤلف يسرد قصة تطور مشروع الكتاب قائلًا: «**عندما بدأت في دراسة الانهيار، أدركتُ سريعًا أنه ليس هناك ملخصٌ عام أو مقدمة له في المتناول، كما هو الحال بالنسبة إلى علومٍ أخرى مثل علم الآثار القديمة الخاص بالإمبراطوريات، أو العرقيَّات، أو الجنس (النوع)، أو التجارة، أو أي موضوعٍ ما آخر؛ إلَّا أن هناك أدبيات هائلة الحجم تسري وتنتشر خلال العديد من حقول البحثٍ المنفصلة بشكلٍ كبير أو قليل، تلك الحقول التي تمتد من السياسة البيئية**

وحتى علم الجيولوجيا». وهذا النطاق الواسع من العلوم التي ترفد دراسات الانهيار، ما يشكل عامل إثراء لهذه الدراسات التي تمثل مزيجًا من التأريخ ودراسة الآثار.

و«**هدف الكتاب ليس «إيجاد حلٍّ» نهائي للانهيارات «الغامضة» للحضارات الغابرة أو طرح «نظرية كبرى» جديدةٍ ما**»، بل هدفه كما يقول مؤلفه: «**التساؤل والاستفهام عن فكرة الانهيار، وتقديم عديد من الطُّرُق التي يُمكِن للعلماء فيها أن يروا مثل تلك الانهيارات ويفسروها**». وبعد «**دراستي لكلٍّ من التاريخ القديم وعلم الآثار القديمة، صار مَيْلي نحو التفكير بصورةٍ أكثر شمولًا، ورغم أني أُحيل على علم الآثار القديمة وعلماء الآثار وعلى التاريخ والـمُؤرِّخين، إلَّا أنَّني أعتبرهما حقليْن مُتداخِليْن، مع وجود أُناسٍ من الطرفيْن مُنخرطين في بحث الماضي وبناء التاريخ والروايات التاريخية، ولهذا فإنهم يتعاملون أحيانًا مع الانهيار**»، و«**الانهيار يتحدَّى نظرياتنا عن التاريخ؛ ذلك أنه يُجبِرنا على تفسير الدليل، وصوْغ رواياتٍ عن الثقافات والوحدات السياسية والمواقع بناءً على العديد من المقاييس الزمنية والجغرافية. وغالبًا يظهر الانهيار في الروايات التاريخية الكبرى**». وفي أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين الميلادييْن، نشأ ميْلٌ تجاه رؤية الانهيار وفهمه كمشكلة بيئية، فعُزِيَ الانهيار إلى تغيُّر المناخ أو إلى الضرر البيئي الذي يُسبِّبه البشر «**الإبادة البيئية**». فيما كان يُنظَر للانهيار منذ قرنٍ مضى غالبًا على أساس الهجرة، وهكذا تتغيَّر النظريات بمرور الزمن، و«**هناك اختلافٌ وتنوُّعٌ بين ما حدث وكيف فسَّر المؤرِّخون ذلك وشرحوه...، وفي بعض الحالات... كان السبب ببساطة شعوب أخرى**». و«**المحصلَّة الحتمية للبحث والقراءة عبر سنوات أن تمتزج تلك الأفكار معًا وتصير أصولها غائمة وغامضة**».

ولا شيء يقول: «**بوجود نسخة واحدة وحيدة «صحيحة» من الانهيار تستوجِب استبعاد كل النسخ الأخرى، ولا أن هناك نسخة أكاديمية أَثَرية (وليست هنالك نسخة «واحدة» منها كذلك) هي الأفضل، ففي دراسة التاريخ هناك العديد من القصص ووجهات النظر التي يُمكِن تفعيلها واستخدامها بطريقة مفيدة. لكن من المهم أن نتعرَّف ونُدرِك الطبيعة التركيبية لأفكارنا بشأن الانهيار... الفكرة السائدة بأن الباحثين**

هم المسؤولون وحدهم عن إنشاء معنى حول الماضي ما هي إلَّا افتراضٌ زائف تُحوِّل انتباهنا عن حقيقة أن التمثيلات والتصوُّرات لها أعرافها الفريدة الخاصة بها ولها كذلك طرق للاستمرار. ولهذا فالمعرفة ببساطة لا يُنشِئها الباحثون ومن ثمَّ تنتشر داخل الثقافة الشعبية (أي: عملية ذات اتجاهٍ واحد)، بل يُنشِئها أيضًا عديد من الأنواع الأخرى من المُحاضرات والمُحادثات التي بدورها تُشكِّل بذاتها أفكار الباحثين».

من ناحية أخرى فإن قصص الانهيار تتسم بشيء من الإثارة يناسب رغباتنا في «قص الحكايات»، ويمكن «رؤية هذه القصص كمأساة وكحكايات ذات عبرة وعِظة. وقد نشأت المأساة «التراجيديا» كنوعٍ خاص من الأداء المسرحي في اليونان القديمة، وعالجت القصص المأساوية مواضيعَ كبيرة وجادة، فالمسرحيات لم تكُن ببساطة «فنًّا» مُجرَّدًا، بل عكست بفعالية السياسات ومجتمع الحياة المعاصِرة لها وعملت «كوسيط قوي لتواصُل الأفكار»». ويستكمل مؤلف الكتاب بناء الجسور بذكاء شديد بين بنية أشكال الدراما اليونانية وسرديات الانهيار قائلًا: «في المأساة، عادةً يرتكب البطل خطًا ما، يؤدِّي إلى هلاكه، وأحيانًا تتسبَّب عوامل خارجية في حدوث هذه الأخطاء، مثل التدخُّل الإلهي، لكن في أوقاتٍ أخرى تكون هناك نقيصة قاتلة في الشخصية. وهكذا يُمكِننا في الانهيار النظر إلى العوامل الخارجية التي يُلقى اللوم عليها، أو النظر إلى الأخطاء التي ارتكبها المجتمع المنهار. وتمامًا كما في المأساة، حيث تسمح «الرافعة» للآلهة بأن يدخلوا ساحة المسرح من الهواء كاشفين عن فعلٍ عنيف يحل عقدة المسرحية، فإن الانهيار غالبًا يُفسَّر عن طريق «الإله من الآلة»،... وتمامًا كما كانت المأساة فنًّا اجتماعيًا، شهدها واستهلكها المشاهدون القدماء، فإن قصصنا عن الانهيار عروضٌ مُبهِرة» يستهلكها المشاهِدون المعاصرون.

وقصص الانهيار «غالبًا تكون جسرًا بين المعلومات والترفيه، وهي تُلبِّي حاجاتنا على عديد المستويات. فالعلماء أبطال حل المُعضِلات، والمجتمعات شخصيات مأساوية، مكتوبٌ عليها أن تفشل، والانهيار درسٌ يجب أن نتعلَّم منه. ولا يوجَد شيءٌ سيئ مُتأصِّل حول هذا الأمر، إنها الطبيعة البشرية التي تحيل كل شيءٍ إلى قصة».

و«**كلما قلَّت الأدِلَّة الـمُتاحة -الأدِلَّة التاريخية أو السردية بالتأكيد- كان مجتمعًا بعيدًا ونائيًا «عنا» في الزمان أو المكان أو الثقافة، وكُنا أكثر ميلًا واستعدادًا لرؤية انهيار ذلك المجتمع كأمرٍ يجب تفسيره بطريقة غير عادية وربما بطريقة بسيطة أكثر من اللازم، لقد أنشأنا خرافاتٍ مُعاصرة عن التاريخ القديم**». هكذا يقرر مؤلف الكتاب.

إحدى القضايا المهمة في الكتاب -وهي تتجاوز نطاق موضوعه- البعد الديموغرافي في حالات الانهيار التي يتناولها الكتاب. وعلى سبيل المثال، فإن انهيار حضارة المايا قد يكون نوعًا من انهيار السكان المالثوسي. والتركيز على عدد السكان نشأ من الكتاب بالغ التأثير الذي كتبه توماس مالثوس، وعنوانه: «**مقالة عن مبدأ السكان**»، المنشور عام 1798م، الذي قرر فيه الـمُؤلِّف أن أعداد السكان تزداد وتنمو حتى تضبطها كارثة من نوعٍ ما. و«**من السهل تخيُّل أن انهيارًا ديموغرافيًا سيكون أمرًا مريعًا -وهو أمرٌ بحُكْم طبيعته ذاتها يجب أن يتسبَّب في الأوبئة الفتَّاكة أو المجاعات الناتجة عن موجات الجفاف أو التغيُّر المناخي أو الضرر النازل على البيئة الداعِمة لمجتمعٍ ما، والـمُؤدِّي إلى تقليص قدرتها على التحمُّل. ومثل هذه الكارثة تكون لها بالتأكيد ارتدادات خطيرة على أي مجتمع- فمن الممكن حتى أن تؤدِّي إلى زوال هذا المجتمع (رغم أن الدول الأوربية القروسطية نجت بشكلٍ واضح من الاختلال الهائل ونقص السكان اللذيْن تسبَّب بهما الموت الأسود)**».

ومشكلة الديموغرافيا منذ الحرب العالمية الثانية تتحرك بوتيرة متسارعة لتحتل مكانًا متقدمًا على جدول أعمال سكان الكوكب. وخلال العقود السبعة الماضية شهد الاهتمام بالديموغرافيا مجموعة تحولات مهمة:

- احتلت قضية التوازن في «**الهرم السكاني**» لكل دولة مكان «**الرقم المطلق**» للسكان، حيث التناسب بين نسبة المسنين ونسبة من هم في سن العمل صارت إحدى القضايا الأكثر إلحاحًا في المجتمعات الصناعية في الغرب الأوربي وشرق آسيا.
- تشهد فرنسا منذ عشرين عامًا مشكلة اقتصادية/سياسية سببها اختلال التوازن

بين أعداد المتقاعدين وأعداد من هم في سن العمل؛ ما دفع إلى رفع سن التقاعد لتدبير الموارد المالية الكافية للمعاشات التقاعدية. تسبب رفع سن التقاعد في أزمة سياسية كبيرة.

- أسهم شيوع «**نمط الحياة الغربي**» وبخاصة فيما يتصل بالفردانية المتطرفة في عزوف متصاعد عن الزواج وعزوف موازٍ عن الإنجاب، ما خلق –للمرة الأولى- ظاهرة تناقص أعداد السكان في دولٍ بعينها، وتصل الظاهرة إلى قمتها في دول مثل: اليابان وفيتنام وإيطاليا.
- في مسعى الغرب لإعادة بناء اقتصاد أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية استعانت عدة دول أوربية بشكل منظم بأعداد كبيرة من الأيدي العاملة من عالم الجنوب/الشرق، ما تسبب –مع عزوف الغربيين عن الزواج والإنجاب- في تغير التركيبة الديموغرافية في عدة دول أوربية.
- مع «**الجيل الثالث**» من أبناء هؤلاء العمال بدأت تطرأ حالة واسعة من الخوف على «**هوية أوروبا**» وصلت إلى أقصى درجات تطرفها مع شيوع سيناريو مستقبلي يحذر مما صار يُعرف بـ «**الاستبدال العظيم**»، الذي يهدد بتقويض هوية أوروبا.

أما قضية التغير المناخي كتفسير لبعض الانهيار، فيشكل جانبًا من جوانب اهتمام أوسع نطاقًا بالمناخ، وقد أخذ منحنى صاعدًا منذ نهاية الستينيات من القرن العشرين قبل أن يصير «**صرعة**» في مطلع القرن الحادي والعشرين. وقد كانت البداية مع عنصر «**النيوترينو**» قبل أن تحل محله مفردات مثل: ثقب الأوزون والاحتباس الحراري. وقد ورد في تقرير السي أي إيه الخاص لسنة 1976 أنه بعد 15 عامًا من استقرار مسألة تغيير المناخ وتأثيرها في السياسة وصلنا إلى أن المناخ سيتغير في بداية القرن القادم (الحادي والعشرين) (بحيث إن المنطقة المعتدلة) أوروبا والدول الصناعية المتقدمة (كعالم واحد) ستصير منطقة شبه ثلجية، وسينتقل المناخ المعتدل إلى المنطقة الساحلية حاليًّا ومركزها السودان! والأساس العلمي لهذا التصور أن جزيء «**النيوترينو**» يُعتبر

فرضًا أساسيًّا في كثير من نظريات الفيزياء، وتكمن أهميته في أنه يتولد كناتج ثانوي (قرابة 3%) من تفاعلات الاندماج النووي التي تحدث في قلب الشمس وتبقيها مصدرًا للحرارة. وباستثناء «**النيوترينو**» تبقى نواتج الاندماج النووي في قلب الشمس لسنوات قبل أن تصل إلى سطحها، أما هذا الجزيء فيصل إلى الأرض خلال 8 دقائق، وتقدر أعدادها بنحو 200 مليون نيوترينو على البوصة المربعة. وحتى عام 1968 كان إيقاف النيوترينو يبدو مستحيلًا وبقي فرضًا نظريًّا أساسيًّا، وفي العام المشار إليه تمكن عالم الفيزياء الأمريكي رايموند ديفيز من إيقاف جزيئاته في أعماق منجم فحم بجنوب ولاية داكوتا، وبعد التمكن من إحصائه تبين أن العدد قليل جدًّا. وسببت هذه النتائج قلقًا شديدًا لعلماء الفيزياء؛ لأنها كانت تعني أحد احتمالين:

- الأول: أن تكون نظرياتهم عن النشاط الشمسي منطوية على خطأ.
- الثاني: أن تكون تفاعلات الاندماج النووي في لب الشمس قد توقفت.

وبطبيعة الحال تظل الشمس قادرة لسنوات على أن ترسل القدر نفسه من الحرارة قبل أن تظهر نتائج هذا التوقف. وهو ما يعني أن توقع مرور الأرض بعصر جليدي قريب له أساس علمي. وبعد 1968 لم يتوقف الاهتمام بـ«**النيوترينو**»، وفي نهاية تسعينيات القرن الماضي صارت أحد أهم الدول التي تجري أبحاثًا حوله، وفي عام 2002 مُنِحت جائزة نوبل للفيزياء إلى علماء الفيزياء الفلكية: الأميركي ريموند ديفيز والياباني ماساتوشي كوشيبا والأميركي من أصل إيطالي ريكاردو جياكوني. واعتبرت الأكاديمية أن أبحاث العلماء الثلاثة في مجال فيزياء الفلك بدلت مفهوم الكون، وفاز ديفيز وكوشيبا بجائزة نوبل عن أعمالهما الرائدة في مجال الفيزياء الفلكية، وعلى الأخص في رصد «**النيوترينو**».

وقد شهدت السنوات القليلة الماضية سيلًا من التقارير المهمة بشأن «**عصر جليدي**» منتظر، وقد حذر تقرير للبنتاجون من أن معظم المدن الأوربية يمكن أن يبتلعها ارتفاع منسوب البحار، فالأراضي البريطانية سيصير مناخها بحلول عام 2030 يشبه مناخ سيبيريا، وعلى عكس معظم الدراسات عن التغيرات المناخية، وهي دراسات

تتبعت ارتفاع درجة حرارة الأرض لمدة مئة عام يتوقع تقرير البنتاجون حدوث «**تغير مناخي مفاجئ**»، أي: غير تدريجي، وهو سيجعل الدول الغنية تحول نفسها إلى قلاع محصنة في وجه موجات الهجرة المتوقعة من البلاد التي سيضربها ارتفاع منسوب البحر. وستواجه أمريكا وأوروبا تبعات التغيرات المناخية التي ستكون لها آثار اقتصادية مدمرة وبخاصة على النشاط الزراعي. وفي النهاية، سيصير جنوب أوروبا محاصرًا بضغوط مزدوجة، من هجرة من الشمال من دول إسكندنافيا وهجرة من الجنوب من إفريقيا، وستمتد التأثيرات الضخمة في أمريكا حتى الغرب الأوسط مدمرة التربة الزراعية. وبسبب الحجم السكاني الضخم للصين سيصير تدبير احتياجات السكان الغذائية عبئًا خطيرًا يهدد أمنها.

في المقابل، خرج علماء أميركيون بنظرية جديدة تقول إن الإنسان نجح في درء حدوث عصر جليدي جديد على الأرض، عندما شرع دون وعي في تغيير مناخ الأرض بحرقه الوقود وزيادة حدة ظاهرة الاحتباس الحراري، وقال باحثون في دراسات المناخ في **جامعة فيرجينيا**: «إن نشاط الإنسان الذي أدى إلى زيادة انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحراري درأ «**كارثة جليدية مدمرة**»».

مهما حاولت الدراسات العلمية تصوير الأوضاع المترتبة على الهبوط الحاد في درجات الحرارة، فإنها بالتأكيد لن تستطيع منافسة هوليود التي أنتجت في 2004 فيلمًا بُني على هذا تقرير البنتاجون المشار إليه، وأثار عرضه تساؤلات عن جدية مخاطر العصر الجليدي هو فيلم: «**The Day After Tomorrow**» الذي أشار إليه مؤلف الكتاب. يروي الفيلم قصة عالم يسعى إلى إنقاذ الأرض من الخطر القادم. في العام التالي (الشرق الأوسط اللندنية 2 من ديسمبر 2005)، نُشرت دراسة تعزز فرضية تغير حركات المياه في المحيطات، ما سيجعل أوروبا أكثر برودة. وترصد الدراسة تباطؤ حركة «**المياه الدافئة**» في العالم خلال نصف القرن الماضي، وحسب هذه الدراسة التي نشرت نتائجها في مجلة «**نيتشر**» العلمية وتعد الأولى في نوعها؛ فإن حركة تيارات المحيطات نقصت بـ 30% خلال العقود الخمسة السابقة على تاريخ نشرها.

وما خلصت إليه الدراسة يقدم دعمًا مثيرًا للقلق لما تحقق على النماذج الكومبيوترية، ولا خلاف بين العلماء حول حقيقة تباطؤ حركة المياه الناقلة للدفء، لكنهم يختلفون حول تأثيراتها المحتملة. وفي دراسة بريطانية، لاحظ العلماء أن مجرى المياه الحاملة للدفء من خليج المكسيك إلى سواحل بريطانيا وفرنسا لم يتغير في حين تباطأت حركة المياه الباردة العائدة إلى الجنوب بـ 50% عن سرعتها السابقة، وهي تغيرات تحدث في أعماق المحيطات، مثلما أشارت إلى ذلك النماذج الكومبيوترية.

الكتاب في النهاية حافل بما يمكن الوقوف عنده من القضايا والتفسيرات، ونطاق حركته -بين علوم عدة- يجعل للقضايا المنهجية الأهمية نفسها: تقييم الأدلة، ووضع الفروض في الميزان، والتقاطع مع ما ورد في الكتب السماوية، ولعل المؤلف لو أخذ في الاعتبار ما في القرآن الكريم من معطيات تتصل بالسنن الكونية كما اعتمد على اجتهادات ابن خلدون لكان مصدر ثراء لدراسته. وغني عن البيان هنا أن التقديم لا يتسع لإيراد ما يتصل بهذه المعطيات.

ويبقى أن لنشر مثل هذه المراجع الرصينة لقراء العربية فائدة كبيرة، وقد بذل المترجم جهدًا مشهودًا في إضافة الهوامش على امتداد الكتاب، ما جعل النص العربي أكثر وضوحًا، وهو بعد صدور ترجمته لكتاب «**انهيار المجتمعات المعقدة**» لجوزيف تينتر (2022) يكون قد أسهم في سد نقص كانت تعانيه المكتبة العربية في الدراسات المترجمة حول الانهيار.